

كيف تحول الحب إلى كراهية بين سيّدة الشاشة العربية وجمال عبدالناصر

فاتن حمامة في مذكراتها: هربت من المخابرات والسجون إلى غربة اختيارية



احتلت سيّدة الشاشة العربية فاتن حمامة، مصرية وعربية، مكانة لم تحتلها فنانة أخرى في عالم السينما والتلفزيون طوال القرن العشرين، حيث حملت أعمالها قضايا الإنسان المصري والعربي في تشابكاتها مع الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي. لكن هناك الكثير من الخفايا التي أحاطت بالفنانة خاصة حول هروبها من مصر وعودتها إليها بعد خمس سنوات، كما تبين مذكراتها المنشورة أخيراً.



محمد الحماصمي
كاتب مصري

كان أداء فاتن حمامة لأوارها يتّسم بالرفقي في مختلف مراحلها والشخصيات التي جسدتها، فقبل مرحلة الخمسينات ظهرت في 30 فيلماً حيث كان المخرجون يسندون لها دور الفتاة المسكينة الريفية، ولكن هذا تغير مع بداية الخمسينات. في الخمسينات، ونتيجة التوجه العام في السينما المصرية نحو الواقعية، بدأت الفنانة في تجسيد شخصيات أقرب إلى الواقع ففي فيلم "صراع في الوادي" (1954) جسدت شخصية مختلفة لابنة الباشا المتعاطفة مع الفقراء والمسوقين، وفي فيلم "الاستاذة فاطمة" (1952) مثلت ابنة الطبقة المتوسطة الطالبة في كلية الحقوق والتي تؤمن بأن للنساء دوراً إيجابياً دور الرجال في المجتمع، وفي فيلم "إمبراطورية ميم" (1972) مثلت دور الأم المسؤولة عن عائلتها في ظل غياب الأب، وفي فيلم "أريد حلاً" (1975) جسدت دور امرأة معاصرة تحاول أن يعاملها القانون بالساواة مع الرجل، وفي عام 1988 قدمت مع المخرج خيرى بشارة فيلم "يوم حلو يوم مر" ولعبت فيه دور أرملة في عصر الانفتاح والبدائل المتقلبة.

ويتابع الناقد "أي مكانة إنز لامرأة بدأت مشوارها بعفوية الطفلة الواعية بما تفعل، وأنهت بحكمة السيدة الناضجة التي خبرت الحياة واستوعبت كل ما كان يدور حولها، عاشت فاتن منذ مولدها عام 1931 ثلاثة ملوك، أحدهم لم يحكم، وتسعة رؤساء جمهورية، ثلاثة منهم مؤقنون، وإقليمية وثلاث ثورات غيرت وجه مصر والمنطقة بأسرها، وهي عبر كل هذا الزمان راسخة القدمين بارعة الحضور الذي لا تأخذ منه الأيام والسنوات، قادرة على التأثير في الحياتين الفنية والاجتماعية".

ساندت فاتن حمامة نجومها، وكسرت تابوهات، وغيرت بأفلامها قوانين، ووجهت بفنّها - في الكثير من الأحيان - الرأي العام ولونته. فقد أثرت إنز وأثرت، وبين الأثر والتأثير استحكمت أن تكون نجمة عصر فني جميل هي عنوانه الأكبر. وعلى الرغم من أن المذكرات حافلة بالأسرار انطلاقاً من اكتشافها

مشاركته في فيلم "يوم سعيد" مع محمد عبدالوهاب، ومروراً بنص رسائلها للفنانة نادية لطفي في فترة نكسة 1967 وانتهاء برحيلها، فإننا هنا نتوقف عند الجانب السياسي حيث تكشف حمامة بالأسماء أبطال مشهد خروجها من مصر عام 1965، وماذا تغيرت نظرتها إلى عبدالناصر بعد أن كانت تعتبره مبعوث السماء لإنقاذ مصر، وحقيقة دور أم كلثوم ويوسف إدريس في محاولة إعادتها إلى القاهرة؛ وماذا كانت تفعل بأوروبا في سنوات الغربة ومن هي السيدة التي كانت سبباً في رجوعها؟ وهل صحيح أنها انتظرت رحيل عبدالناصر حتى تقرر إنهاء غربتها والعودة إلى الوطن؟

يقول غريب "لم تكن فاتن حمامة محبة يوماً للسياسة ولا للحديث فيها، صحيح أنها لم تتفصل عن الاهتمام بقضايا وطنها أو عن همومه، لكنها كانت دائماً حريصة على ألا تنزلق إلى دهاليز السياسة رغم أنها عاصرت ملوكاً ورؤساء متعاقبين، وعاشت ما يزيد على ثمانين عاماً كانت من أشد فترات التاريخ المصري حساسية واضطراباً، وصحيح أيضاً أنها شاركت في مشاريع قطار الرحمة



أول الأدوار المبكرة لسيدة الشاشة

نداءات أم كلثوم ويوسف إدريس ساهمت في عودة الفنانة

سوى إحساسها بالخوف من المصير الذي ينتظرها حتى بعد هزيمة 1967 والشعور بالمرارة الذي عاشته في الغربة".

العودة إلى مصر

يحكي غريب كيف قابلت فاتن حمامة أم كلثوم في باريس، وطلبت منها العودة وأنها تضمن لها حرية الحركة والخروج والدخول من وإلى مصر، فردت عليها فاتن بجملته واحدة "كتر خيرك" وزادت النداءات من داخل مصر بضرورة عودة سيّدة الشاشة من بينها نداء وجهه لها الكاتب يوسف إدريس عبر أثر الإذاعة المصرية، وآخر عن طريق الأديب عبدالحميد جودة السحار الذي كان يرأس مؤسسة السينما، فكان ردها أنها تجد مشقة وعانت في سفرها من وإلى مصر، فسعت كل من أم كلثوم والسحار لدى وزارة الداخلية عام 1968 وبعد اختفاء صلاح نصر لاستصدار موافقة الوزارة على سفر فاتن دون موافقة زوجها عمر الشريف، ومع ذلك لم يطمئن قلب فاتن حمامة ولم تعد إلى مصر إلا في عام 1970.

ويلفت غريب إلى أن هناك معلومة مستقرة عن أنها لم تعد إلى مصر إلا بعد وفاة الرئيس عبدالناصر في سبتمبر 1970 وهذا غير صحيح، فقد وصلت فاتن إلى القاهرة في فبراير 1970 في زيارة قصيرة لمدة عشرة أيام كانت استكشافية لما يمكن أن تواجهه في حال عودتها إلى الوطن، وبمجرد أن اطمانت عاشت خلالها خمس العائليّة لاسيما وأن ابنها نادية وطارق كانا يدرسان في لندن، ونزلت أثناء هذه الزيارة الاستكشافية في فندق هيلتون تأكيداً للجمع بأن زيارتها مؤقتة. ويستدرك لكنها لم تعد بالفعل للإقامة الدائمة والمستقرة بشقتها في عمارة لبيون إلا بعد وفاة الرئيس عبدالناصر وتولي الرئيس السادات رئاسة الجمهورية وبعد أن شاهدت بكاء إحدى المصريات قابلتها بالصدفة في لندن فقامت باحتضانها في الشارع قائلة لها "وحشتينا يا فاتن... ارجعي بقى" فعاتت الفنانة إلى بلدها.

وهكذا طوت سيّدة الشاشة واحدة من أسوأ فترات حياتها عاشت خلالها خمس سنوات في غربة اختيارية ثمناً لحرية التي لم تكن على استعداد للتنازل عنها، ورفضاً للانغماس في لعبة السياسة القذرة احتراماً لنفسها ولتاريخها الغني، والحب الكبير في لبنان، لكن يوم في حياتها.

وتخفون ويوضعون في السجون، وعن زملاء وزميلات يتم الضغط عليهم للعمل مع جهاز صلاح نصر".

يلفت إلى قول فاتن "عاشيت ظلماً كبيراً تعرضت له الكثيرون من حولي، وتعرضت للتضييق في حركتي وفي سفري للخارج وأشياء أخرى، إلى أن اتصل بي شقيق فنان كان يعمل بهيئة الاستعلامات (يبدو أنها تقصد مرسي سعد الدين شقيق الموسيقار بليغ حمدي)، وكنت قد انتهيت من تصوير فيلمي "الحرام" وكأية العمر كله، والمشاركة في مسابقة مهرجان كان السينمائي الدولي، في هذا الاتصال طلب الرجل تحديد مقابلة مع أحد رجال المخابرات لأمر هام، ولم يكن أمامي سوى الترحيب بزيارته".

وأضافت الفنانة "جاءني الرجل بالفعل وأخذ يحدثني عن أمور تخص أمن البلد والتضحيات التي لا بد أن نقوم بها جميعاً، وطلب مني أشياء محددة من بينها وضع ميكروفونات في شقتي لتسجيل محادثات كل من يزورني، وتركت لي مجموعة من الكتب عن الجاسوسية طلب مني قراءتها للتعرف على طبيعة العمل المطلوب، وقال نحن نثق بك ونعرف أنك لن تتكلمي رغم أن لك أشقاء يتكلمون، ونحن نتركهم لأجل خاطرنا، شعرت ليلتها بانقباض شديد، وحينما بدأت في قراءة هذه الكتب زاد انقباضي وخوفي من قذارته ما قرأت ومما ينتظرني في هذا الملف أيا كان موقفي من ذلك العرض".

وتابعت "لم أتم لمدة أسبوع، استشرت مجموعة من الأصدقاء أثق بهم من بينهم المخرج حلمي وشقيقه أسعد حلمي وكانا ضيفين دائمين على سجون عبدالناصر، فاجمعوا على أن هؤلاء لن يتركوني، وبعد أسبوع اتصل بي رجل المخابرات فاعتذرت له وأكدت له أنني إذا سمعت أي إسائة لمصر لن أتردد في إبلاغهم، وبعدها زادت المضايقات لي ولإسما في ما يتعلق بالسفر إلى الخارج، ونصحتني أحد الأصدقاء (لم

وتسليح الجيش المصري وأسبوع الشفاء وتمريض الجنود أثناء وأعقاب حربي 1956 و1973 لكن ذلك كان بدوافع وطنية بحتة بعيداً عن الانتماء والاستقطابات التي تعرفها دائماً لعبة السياسة".

ويتابع "مع ذلك فقد وجدت فاتن نفسها ذات يوم في صيف 1965 منغمسة في قلب لعبة السياسة، وكان عليها أن تتخذ القرار الصعب، وتدفع ثمناً لهذا القرار خمس سنوات من الغربة بعيداً عن مصر والكثير من الملاحظات التي استهدفت تشويه صورتها وصورة زوجها في ذلك الوقت الفنان عمر الشريف".

ويصدر غريب كيف استيقظ عشاق فاتن حمامة ومنتجو السينما فجأة ذات صباح في يوليو 1965 ليكتشفوا أن سيّدة الشاشة قد غادرت مصر في الليل دون سابق تهديد، وظن الجميع أنها مجرد رحلة اعتادت عليها فاتن لزيارة زوجها في ذلك الوقت عمر الشريف الذي كان يحقق نجاحاً طيباً في السينما العالمية، لكن غيبها طال وطال معها صمتها عن أسباب تلك الغيبة، وحتى حينما عادت بعد خمس سنوات كانت الإجابة المشهورة في وجه سائلها أنها لأسباب العائليّة: عمر بين أوروبا وأميركا، ونادية وطارق في مدارس لندن، وعملها بين بيروت وتقيم في مصر".

ويطبيعة الحال لم تكن تلك هي الحقيقة التي أبتت عليها الفنانة، واقع الأمر وبعد مرور كل هذه السنوات من ملامسات خروج سيّدة الشاشة من مصر والظروف التي أحاطت به يندرج تحت عنوان كبير هو سيطرة الخوف وغياب الحريات في مصر، وعنوان أكبر اسمه صلاح نصر رئيس مخابرات عبدالناصر.

سيّدة الشاشة العربية لقب غير مرتبط بمرحلة فنية أو عمرية وغير منسوب للجمهور وحده



بشعر غريب "حينما قامت ثورة يوليو كانت فاتن حمامة في بدايات العشرينات من عمرها، وبحماس الشباب ويوارح من فطرة الوطنية أمنت بمبادئ الثورة وكانت محبة لقائديها نجيب ثم عبدالناصر، والأخير تحديداً كان بالنسبة إليها كالإله، ومبعوث السماء لإنقاذ مصر، واستمرت الحال كذلك حتى السنوات الأولى من الستينات إلى أن لاحظت تغيراً في المناخ العام وتضييقاً في مجال الحريات، وبدأت تسمع عن زملاء يؤخذون في منتصف الليل

بشعر غريب "حينما قامت ثورة يوليو كانت فاتن حمامة في بدايات العشرينات من عمرها، وبحماس الشباب ويوارح من فطرة الوطنية أمنت بمبادئ الثورة وكانت محبة لقائديها نجيب ثم عبدالناصر، والأخير تحديداً كان بالنسبة إليها كالإله، ومبعوث السماء لإنقاذ مصر، واستمرت الحال كذلك حتى السنوات الأولى من الستينات إلى أن لاحظت تغيراً في المناخ العام وتضييقاً في مجال الحريات، وبدأت تسمع عن زملاء يؤخذون في منتصف الليل